إسماعيل ولي الدين



الباطنية

الباطنية

اسماعيل ولي الدين

Amly

الباطنية

مكتبة غريب

- ١ -

أجساد متحركة متدفقة خارجه من النجور الواقعة خلف سور صلاح الدين . عند كيمان الزبالة وتل قطع المـرأة ، أجســاد قادمة فى عجـلة من دروب المحروق والشعلان والدليل ، من سكة بير المش وزرع النوى

بعد أن انتهى المصلون من صـــلاتهم ، وقبل تحيــة بعضهم لبعض كالعـــادة ، بحث كـل واحــد منهم عن شبشبه أو صندله أو حذائه ، الحافى منهم كل الأسرع فى الجرى ، باحثا عن الأصوات والشجار والدخان ٠٠ ذاهبين تكسو وجوههم البركة وماء الوضوء من زوايا سيد عبد النور ، الأربعين والشيخ عليش ٠

اشــترك أيضــا النسوة البلـــدى فى البحث عن الضجة ، كن يتحركن فى هزات متدافعــة متدافقــة ، يكسو معاصمهن أســاور الذهب الــلامع ٠٠ يرفعن طرف الملاءات السوداء فى هزة عصبية تثير الأفئدة٠

ترك الأولاد الصغار اللعب عند الأبراج ٠٠ لعبــة الكومى والبصرة والثـلاث ورقات ٠٠ تركوا خــدمة النزلاء القــادمين للتحشيش فى وضح النهار عنــد أسوار الأبراج المســنونة ٠٠ لا يروق لبعض المعلمين التحشيش الا فى وضــح النهــار والشمس ســاطعة ســاخنة ترمى بأشعتها الصــحية فوق قبــاب كركر وحمص أخضر وابن غــراب ٠٠ والســهل الواضــح المنبسط بين تل المرأة وسور القــاهرة القديم الذى لم يبق منه الا أحجار مسنونة وبوابات قديمة ٠

وصلت الضــجة حتى مقــام السبع بنات الشلبيات وفاطمــة النبوية وساحة الذكر حولهــا والتى يملؤها صخبا وصراخا ، مغنيات رخيصات ٠٠ يشترك معهن فى الغنــاء جنود الأمن المركزى وبعض القــادمين من الصعيد الجوانى وأولاد بلد لا هم لهم الا الوقوف فى الزحام ٠

فى نهاية الخطوط المتلاصقة ٠٠ يجلس صفوف من الناس ، عجائز وفتيات ونســاء ممصوصات الوجوه كســالى نحيفات مريضــات بالصــفراء والحــاجة ،

الكورس يردد وراء المغنية الرخيصة ٠٠ « عجبى على بنت بيضة ٠٠٠ » ٠

فى دائرة أخرى ٠٠ كان المغنى ينشــد موالا آخر :
يا وردتين فى طبــق ٠٠ والبنــت مــا تتخطب الا فى صحبة ٠

عندما وصل الخبر الى حلقة الذكر ٠٠ توقف الغناء وحركة المنشدين ٠٠

كان سبب الضجة والصخب والحركة المتدافقة التى بسببها قد تفقد أم طفلها الرضيع ٠٠ أو يندا س طفــل صــغير أو شيخ محطم أنهكته الســنوات تحت حركة الأقدام المجنونة الذاهبة الى الدخان والرائحة العطرة ٠

هناك فى الباطنية ٠٠ عند حوش قدم ٠٠ عند موقع منزل جمال الدين الذهبى الــذى لم يتبق منــه سوى القاعة الكبرى وحوائطها المنقوشة بالتراب والرطوبة والقدم ، ونافورة فى فناء الدار سرق أغلب رخامها ، لتبقى أطلالا رائعة ومرتعا للعناكب فى بطنيتها المرتفعة قليــلا عن الأرض التى باتت طينية بعــد أن كــانت من الرخــام المخملى ، ومحراب صــغير لم تعــد كلمــاته ونقوشه ظاهرة للعيان ، أما سقف الدار المحلى بالذهب فقد أصبح فى خبر كان ٠

هناك كان الزحام على أشده ·· الزحام الذى يضم أغلب سكان الباطنية والنبوية ·· هناك كان البوليس يحرق بعض فرد الحشيش فى وسط الفناء بجانب النافورة البائسة · هناك كان أيضا سيد المجنون وعلى العفريت وفتحى العقاد · أكبر تجار للمخدرات فى المنطقة والرؤوس المدبرة لكل أنواع الحشيش فى الحى وخارجه ·· أكبر موزعى المخدرات ·· جالسين القرفصاء ·· أيديهم فوق رؤوسهم ·· وراءهم خطوط من مساعديهم وصبيانهم ·

دهم البوليس المنطقة فى فترة أمان وهدوء نسبى وعدم حيانه لم يعرف الناضورجية والمرشدون وحتى أتباع البوليس الذين يأخذون العمولة من التجار الكبار · لم يعرفوا نبأ الكبسة الا والبوليس على مستوى الكبار فى وسط المنطقة وعند حوش بهادر المقدم ·

فى لحظة واحدة ولم تنفع المقاومة من الذين يحملون السنج والسواطير والمطاوى · لم تنفع المقاومة للمفاجأة ولكثرة ايدى البوليس ووجود الكبار منهم وسط المعمعة

عند الظهيرة ·· بدأ خروج بائعى المخدرات الخروج من المنطقة خلال درب المقريزى ومحمد عبده

المبلط بقطع الحجارة الى ميدان الأزهر ·· حيث جمعوا فى خشونة وفظاظة داخل أحد اللوارى المغطاة

لم يفق سكان الحى من دهشة وقوع الكبار فى أيدى البوليس فى لحظة خاطفة قصيرة ·· الا بعد رحيلهم من المنطقة وانفضاض السامر الذى جمعه دخول البوليس ورائحة الحشيش المحروق التى يلهث وراءها الكبار والعجائز المساكين الذين انحرفوا منذ سنوات عديدة برائحة وأنفاس ذلك المدعوق ·· خاصة ذلك المكروه الذى يذهب بصحة العفى وثروة القادر وطموح النشيط ·· الأسود اللون العجينى الملمس ·· الأفيون الاسود الذى لا يدخن مثل ذلك المكروه الآخر ولكن يمتصونه فى تلذذ غريب ·· يتوهون عن العصر وماسيه التى تكثر يوما بعد يوم ·· ولا يستطيعون الحياة بدون الوهم الكاذب والأمل المحلق فى السماء الذى لن يأتى ولن يصل الى أيديهم الحمقاء مثل كرة من اللهب أو الغنى والحياة المتسعة لكل الفقراء الذين شبوا على الفقر ولم يستطيعوا الارتفاع عنه ··

قال رجل مسن ، والزحام يبتعد ، يخف فى طريقه الى مشاغله اليومية ·· ان هذا اليوم يذكره بثورة القاهرة عند الأزهر منذ سنوات بعيدة يعلوها التراب والصدأ الآن ··

ـ ٢ ـ

أجساد متمايلة مثل أغصان الشجر ٠٠ الصاجات لها حافات وأقواس داخلية وأصابع تمسكها ٠٠ ترفعها فى الهواء تتشعلق معها بالمجـد الكاذب ٠٠ والطبلة تصرخ من لمســات الأصابع فوقهـا ٠٠ وصوت أجش يرتفع مع نسمة هواء وشفطة مخــدر مغشوش ، ووجه حلو نضر ، وأصوات العامة تطلب المزيد ٠

الليل فى بدايته والسهر يحلو خارج الدور بعيــدا عن مشاكسات ومطالب الأولاد ومناكفة الفقر ٠٠ بعيدا مع الدخان الأزرق فى حلقات الذكر التى توقظ المشاعر فى البــداية ثم تخمد فى النهــاية ٠٠ فى البــداية مع

الضربات العنيفة المتتالية التى تنزل على العقول مثل السواطير الحادة القادمة على الخط المرسوم ·· ثم تنتهى بمرحلة التعود ، تموت الخلايا وتفقد المشاعر حيويتها وما يعتمل بداخلها ·· ويفقد الرجال صراعهم مع الحياة ·· ويحملون الأحلام وسط النهار ·

دوائر من الرجال والملابس المختلفة والطواقى المشغولة ولافتات للبراهمية والشاذلية والدسوقية ·· أسماء وحركات وزمالة يجمعها معا لحظات الموت والتوهان ·

تدور قعدات التحشيش وراء حلقات الذكر القريبة من الدور المتآكلة المتهدمة وزاوية الشرارية التى مازال الناس يتفاءلون بها ، يضعون على مزارها الخرق الجديدة الملونة والأشرطة الحريرية متى قضيت حاجتهم ، وبالقرب من الزاوية جامع سويدان القصراوى المنشأ فى حارة حيضان الموصلى ·

يقال فى الأساطير القديمة أن حزقيل أحد أصحاب موسى عليه السلام مدفون داخل أرضية هذا الجامع وأن من يدعو الله فى هذه البقعة يستجاب رجاؤه على الفور حتى أنهم يسمون هذا الجامع الآن جامع الدعاء

على باب الجامع تجلس « وردة بنت كسرى » ··

احدى المنشدات فى المولد مع أخريات على شاكلتها نحيفات صفر الوجوه مثل الموتى بالرغم من الأدهنة التى تكسو وجوههن والعقود التى تحلى أجيادهن والأساور الزجاجية التى تملأ معاصمهن ·

وردة بنت كسرى تحكى للجالسين حولها فى شماتة واضحة كيفية القبض على « فتحى العقاد » أحد ملوك المخدر فى الضبطية الأخيرة التى قام بها البوليس فى رحبة بهادر المقدم ، وقريبا من أطلال جمال الدين الذهبى ·· وسبب الحقد أنها زوجة غير شرعية لفتحى العقاد ·· لها منه ابن غير شرعى رفض أبوه أن يعطيه اسمه ·· واضطرت بسببه منذ سنوات بعيدة أن تتزوج عازف مزمار رخيصا لكى تعطى ابنها الوحيد اسما ولقبا ·· أصبح الولد الآن شابا يافعا يعمل معها فى الجوقة التى تمر على الموالد والحضرات التى تقام كل ليلة عند أحد أبواب الجوامع المشهورة فى القاهرة والأقاليم ·

ظلال بعيدة مرت على بؤسها مع الحياة ، كانت فتاة يافعة نضرة يوم أن أغرم بها فتحى العقاد ·· رغب فيها وعاشت معه أياما سعيدة حتى جاء الطفل « محمود أبو دومة » على اسم زوجها ــ فهجرها وعاد الى أسرته الكبيرة واسم أبيه العقاد الذى له وزنه فى

عالم المخــدرات ·· يمتلك مقــاطعة ضخمة تمتــد من البحر الأحمر حتى القاهرة الكبرى ·

حملته شـــهورا على كتفهــا ، ألقت به الى احــدى النسوة الشمطاوات اللاتى ذقن مرارة الفقر والحرمان والعربدة ومجالسة الرجال ـ كان ذلك أثناء القائهــا التواشيح والأغانى الموزونة ـ أرقــدته بجوار فراش نامت فيه مع رجال اخرين ·· سحبته وراءها الى قرى الصعيد والدور القديمة والعائلات الفقيرة التى تنعم بالذكر والحضرة عنــد مجىء السعد اليهــا أو تحقيق احدى الأمانى ·

وعندما كبر وأصبح فى استطاعته أن ينطق الحروف جيدا وأن يتحرك مثل الأطفال الذين فى سنه ، تزوجت من عازف المزمار سعيد أبو دومة على شرط أن ينسب الطفل اليه ·

كانت تذهب كل أول شهر ذليلة طائعة مضروبة حتى النخاع الى فتحى العقاد ·· لتأخذ تموين الشهر من دقيق وسكر وسمن وبعض الجنيهات القليلة من أجــل الصبى ·· كان الجميع يعرف ويصمت ·· حتى الطفل عنــدما شب عن الطوق عرف من النسوة الشمطاوات ومن أعضاء الجوقة أن أباه هو أحد سلاطين المخــدر « فتحى العقاد » وأن أمه حملته فى الحرام ·

لم ينطق الصبى ·· وانما تناول الأمر كشىء معتاد وسط البيئة التى عاشها ومازال يعيشها منذ أن كــان طفلا أعجم ليس قادرا على الفهم ·

والصبى أو الفتى ذو العشرين عاما ·· يبدو دائما غريبا عن المجتمع الذى يعيش فيه ·· دائم الشرود ·· يبدو كانسان فاقد النطق ، بل أحيانا فاقد العقل ·

حاولت أمه أن تجذبه الى المدارس كما يفعل أبناء الفقراء فى السنوات التى أعقبت الثورة ولكن يظهــر أن بينه وبين الدرس والتحصيل عداء قديمــا ·· فلم يحصل ولو حتى على شهادة الابتدائية ·

يجلس طوال النهــار يرقب الشمس وهى ترتفع ثم وهى تغيب ·· والقمــر وهو يطلع ثم وهــو يختفى ·· والسماء وهى تتلون بألوانها المختلفة ·· يجلس على أى مصــطبة يقــابلها أو أى درج جامع قديم ، يراقب المنشدين أو النافخين فى المزاميــر والضــاربين على الطبول ·· يراقب النســاء الشحاذات الساقطات ·· يراقب قعدات الحشيش ·· ولا يشترك فيها ، حتى عند موعد الأكل لا يأكل الا أقل القليل ·

فتى نحيف طويل القامة ، مليح الوجه ، على بشرته الكثير من خطوط الحرمان والكبت ·

منذ سنتين أخذته أمه الى أبيه هناك فى رحبة بهادر المقدم حيث يشرف الأب على توزيع المخدر على التجار والمشترين ، لعله يجد عملا للفتى الخائب ·· ولكن الأب سريعا ما فقد اهتمامه به بعد حديثه القصير معه ·· وتناساه تماما ·· فقد أسقط خمسة جنيهات فى جيب قميصه ·· ومن يومها والفتى متعلق بأبيه ·· ينتظر فى يوم أن يرسل أبوه فى طلبه ·· يعيش يحلم بهذا اليوم ·· ولكنه لم يحاول يوما أن يتقرب أو ينتسب للأب الواسع الغنى والشهرة فى المنطقة ·

أحيانا يترك جوقة أمه ويذهب بعيدا ·· يجلس على مصطبة أو درج رخام أثرى ·· يراقب الأب وهو قادم فى مهابة الى ميدان الحسين فى عربته المرسيدس البيضاء ·· يتحرك خلفه مثل كلب أجرب وهو يدخل الحوارى والأزقة ·· التبليطة والمقريزى حتى يصل الى الباطنية والى رحبة بهادر المقدم ، فيجلس فى انتظار أن يراه الأب ·· ولكن الأب دائما مشغول بعمله وصبيانه وتجاره من الباطن ، وينتهى الحلم بعودة الأب الى عربته المرسيدس ، وعودة الفتى محمود الى مستقره مع الجوقة حيث يجلس فى آخر الصف ·· حتى مطلع يوم جديد وحلم آخر ينتهى بالفشل ·

لم يكن يحكى لأمه حلمه الوردى أو رغبته الدفينة

القوية فى أن يحيا فى حضن ذلك الأب المهاب القوى الذى يخشاه المتنافسون ·· يحقدون ويدبرون له المكائد التى قد تصل حتى التبليغ عنه وعن صبيانه الى البوليس ·

ويرسمون له الكمائن كما حدث فى الواقعة الأخيرة ·

ـ ٣ ـ

في حارة زرع النوى ، منـــازل قديمة متداعيـــة ، ودهان لم يجف بعد ، وغسيل منشور وعربات كـــارو معطلة ٠٠ وعربات جاهزة للحركة محملة بشنابر سلك وأســـلاك رفيعة خــردة ، وأكوام من الخشب اللتزانة وعروق خشبية لم تشق بعد ، وماكينة لشق الخشب وحوض ماء لشرب البهائم ، وحصان يئن تحت أكوام الذباب والنضارة الجلد التى تحيط رأسه والشخاليل والعريشان اللذان يشدان العربة الى جسده ٠

الحصان تحت تأثير آلامه الخاصة به وحده والتى لا يعلمها أحد ، يخرج لسانه ، يفتح فمه ، يتنفس هواء

القيد من منخريه ، ويتطلع الى المحيط الذى حوله من أخشاب وطين وبشر لا يفكرون الا فى مصيرهم وحدهم ، غارقين بما يعتمل فى صدورهم وحدهم .

مجموعة من الرجال الجالسين فى اصطبل المعلم عامر .. رجال يبدو على وجوههم الجد والاجتهاد ، وعلى رأسهم المعلم الكبير العقاد والد فتحى العقاد . جالسا على كرسيه ذى العجلات .. مشلولا منذ زمن .. عجوز زادته السنوات اصرارا وقوة ، كان أكبر معلمى المخدرات فى الباطنية .. فى القاهرة كلها .. قبل أن يسلم العمل والسلطان لابنه الأكبر فتحى .. يجلس معه ابنه الثانى حنفى وابن فتحى العقاد ووريثه فى السلطان الشاب « أدهم العقاد » والذى يعلم الكثير عن تجارة أبيه المحرمة .. وأيضا بعض المساعدين الشبان والعجائز من أصحاب الحرفة الواحدة .

كانوا يبحثون المصير .. بعد كبسة البوليس الأخيرة على تجار الباطنية .. أجمع المجتمعون أن وراء كبسة البوليس ذلك المدعو « برعى الكشر » أحد مساعدى المعلم فتحى العقاد منذ سنوات .. والذى يعرف الكثير من خبايا الأمور وتجار الحشيش .. ومنطقة البحر الأحمر بين سفاجة والقصير .. وموزعى الصنف القادمين من الخارج يلقون بحملهم الجهنمى

على شواطىء البحر . كان فتحى العقاد يثق به ثقة عمياء وذلك قبل أن يتركه ويستقل بتجارته ويكون له صبيان ومريدون .

وبرعى الكشر واحد من أبناء الباطنية المشهورة منذ الزمن القديم .. ويقال ان سبب التسمية أن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله كان قد انتهى من العطاء عند وصول احدى الجماعات التى كانت تسكن هذه المنطقة .. فقالوا رحنا فى الباطل .. ومع الزمن .. تحرف الاسم الى الباطنية .. وفى سنة ثلاث وستين وستمائة هجرية ، احترقت الباطنية أيام الظاهر بيبرس ، وأصبحت خرابا .. ومازال الناس حتى يومنا هذا تضرب المثل لمن يشرب الماء كثيرا فيقولون كأن فى باطنه حريق الباطنية .

كان برعى الكشر يعمل كصبى فى مقهى رخيص فى حارة الأنسية عندما تعرف بفتحى العقاد .. وجد فيه العقاد ذكاء لماحا وقدرة على العمل فضمه الى مساعديه الكثيرين وسريعا ما أصبح أهم واحد فى الجوقة واليد اليمنى لفتحى العقاد .. ولكن برعى الكشر بما يتمتع به من ذكاء ودهاء وخبث فى التعامل رغب فى السنوات الأخيرة فى الانفصال والاستقلال بتجارته المحرمة بعد أن عرف الكثير من خباياها والموردين القادمين عبر البحار وخاصة أن مهمته الأساسية فى

المدة الأخيرة كانت فى التعامل مع تجار البحر الأحمر ·· وأصبح له شعبية خاصة فى منطقة سفاجة ·

وكان برعى الكشر يصرف الكثير على ملذاته وعلى سهراته مع موردى البحر ، كان يهتم بملبسه وأناقته وعرباته التى يغيرها كل سنة كما يغير زوجاته الكثيرات اللاتى يتزوجهن فى الحلال حتى تنتهى رغبته فيطلقهن ·· وحاول فتحى العقاد أن يجذبه الى الجوقة بتزوجه من أخته « صفية » ولكن برعى الكشر وجد أكثر السبل لابتعاده عن الزواج بشقيقة المعلم الكبير وأخيرا انفصل عن الجوقة بعد أن أخذ أهم مساعدى المعلم فتحى العقاد عن طريق المال والخبث واللزوجة ·

وفى المدة الأخيرة ظهر كشريك قوى ومنافس عنيد لا يقهر للتجار الثلاثة الذين يمسكون السوق ويتحكمون فى السعر خاصة بعد وفاة المعلم المجنون الكبير وظهور ابنه الضعيف المختل العقل « سيد المجنون » فى السوق ·

وأفول نجم المعلم على العفريت بعد فقده أكثر من مرة فى مدة قصيرة كميات ضخمة من فرد الحشيش فى معارك ضارية مع البوليس وخفر السواحل ·· حتى تردد أكثر من مرة فى السوق أن السبب وراء كل

هذه المعارك برعى الكشر وأنه هو الذى كان وراء اخباريات البوليس المتكررة ·

وكان فى نية التجار الثلاثة المتحكمين فى تجارة المخدر اقصاء برعى الكشر من طريقهم لولا كبسة البوليس الأخيرة الجريئة على معقل الحشيش فى عقر داره فى الباطنية والتى انتهت بأخذ العقاد والمجنون والعفريت فى القيد الحديدى وخلفهم صبيانهم الذين كانوا بالصدفة موجودين فى حوش بهادر المقدم أثناء عمليات البيع والشراء ·

لذلك عقد الجد ·· « العقاد الكبير » هذا الاجتماع فى اصطبل المعلم عامر ـ أحد أفراد المنطقة الذين تكونت أكتافهم من خير العقاد الكبير ـ مع بقية المساعدين الذين لم يكونوا موجودين ساعة الكبسة المشئومة ·· اشترك فى الاجتماع أيضا ابنه الثانى حنفى وحفيده « أدهم العقاد » الفتى القوى التكوين الحاد الملامح الذى يرجى الكثير من ورائه عندما يمتد السلطان اليه ·· وها هى ذى اللحظة المناسبة قد جاءت ·· ولكن أدهم العقاد كان له رأى مخالف للجد الكبير المشلول الذى مازال يعيش بعقلية قانون الغاب والدم ·· أدهم العقاد يرى الحيلة والدهاء أفضل من اراقة الدماء ، خاصة أن البوليس يتعقب خطواتهم ·· وأن السند الكبير لهم فى الوزارة غير موجود الآن بعد

احالتــه على المعــاش ·· بعكس برعى الكشر الــذى يساعده الكثير من أصحاب السلطة ومدمنى المخــدر وطالبى المال الحرام ·

كــانت غلطة فتحى العقــاد القــــاتلة ·· فى رأى الكثيرين أنه أصبح لايصرف الكثير على كبار المسئولين وكان يعتمــد على ماله من خبــرة فى السوق وكثــرة المســاعدين وتغلغل تجــارته وســطوته فى الأقاليم والقاهرة الكبرى ·

غضب العقاد الكبير من حديث حفيده أدهم العقاد ·· وقال : اننى الكبير والمسئول ولن يرتاح لى بال الا بعد تصفية مقاطعة ذلك الصبى الأحمق ـ هــكذا كان يسمى برعى الكشر ـ وعند أخذ أصوات المجتمعين ·· وافق الجميع على رأى العقاد الجــد ماعدا أدهم ·· وبدأ عصر الدم فى الباطنية ·

ـ ٤ ـ

بعد جامع الأقمر ·· الدرب الأصفر ·· حيث تسكن زوجة برعى الكشر الأولى وأم أولاده ، التى تزوجهــا عندما كان صبيا فى مقهى ·· وطلقها فترة عند بداية اشتغاله بالمخدر وأثناء انشغاله بالمال السايب والحياة الخطرة المشتعلة بالملذات ·

فى بداية عمله مع العقــاد ·· قبض عليه البوليس فى احدى هجمــاته ، ليقضى فى السجن ســنة وســتة شهور ، لم يزره من النســاء سوى مطلقته أم ولديه عماد وماجد ·· عند خروجه من السجن ·· أعاد أم عماد الى عصمته ·· اشترطت عليه يومها أن يؤمن

يومها وغدها ٠٠ أجر لها دكان نحاس كبيرا فى المساحة بين الصنادقية وجوهر القائد مقابلا للمدرسة الأشرفية ٠٠ هناك حيث محلات العطور والبخور ودكاكين زر العفريت وشمر اليانسون ٠٠ محل كبير له ثلاث أبواب أجرته زهيدة فى الزمن البعيد ٠٠

ملأت أم عماد المحل بالنحاس والطشوت وقدور الفول وكفوف الكبش ثم لما رضى الحال عنها ٠٠ علقت على باب الدكان التحف القديمة القريبة الشبه من الأصلية وأطباق الفضة المشغولة ، وتماثيل فضية صغيرة تثير نظر السياح ٠

وأصبح الدكان يجمع بين القديم والحديث ٠٠ بين الملايات اللف وأبناء الريف والشباب المتعلم المصاحب للسياح فى جولاتهم الحرة ٠

كان عماد يفتح الدكان وماجد يعود بعد الغروب ليساعدها فى شد ستائر الدكان ، يساعدها فى عملها صبى صغير بالدكان الذى كانت به راضية قانعة ٠

واستمرت تعيش فى منزلها القديم بالدرب الأصفر ٠٠ المنزل الذى تزوجت فيه برعى الكشر ٠٠ فقط عندما ترك سكان الطابق الثانى البيت الذى لا يرتفع أكثر من طابقين ٠٠ أجرت الطابق الثانى ودفعت فيه مبلغا

كبيرا ٠٠ وأصبح الطابق الثانى مستقرا لمعيشة عماد وماجد ومكانا صالحا لمقابلة أصدقائهما وأيضا حيث يستذكران فى نهاية سنواتهما الدراسية فى كلية الطب ٠٠ شب الولدان صالحين محبين للتعليم ولأمهما ، شاعرين بفضلها عليهما ٠٠ وعندما حاول برعى الكشر ضم الولدين اليه عندما أصبحا فى سن الشباب ٠٠ رفضت أم عماد رفضا قاطعا ٠٠ بل طالبته بالطلاق ، ليتركها فى حالها هى وأولادها ٠٠ يكفيهم محل النحاس ، لا يحتاجون حتى لزياراته ٠

وأذعن برعى الكشر لرغبة زوجتى الأولى ٠٠ تزوج وطلق الكثيرات ولكن هى الوحيدة التى بقيت فى قلبه تأخذ مربعا ثابتا لا يتغير تبعا للظروف والأهواء ٠٠ يكفيها أنها أنجبت له ولدين يفخر بهما أى وزير أو أى سلطان ، أدب وعلم ودين ٠

كان برعى يزورها مرة واحدة فى الأسبوع فى الطابق الأول من البيت الذى تستقر فيه ٠٠ وفى ليالى الجمع ٠٠ كانت تبسط له البساط وتضع المشويات والحمام المحشى وصينية المخاصى وزجاجة خمر ٠٠ بالرغم من كراهيتها لكل ما هو مسكر ـ هكذا كان يقال عنها فى الدروب القريبة من جامع الأقمر ـ ولا تنسى أيضا جوزة المعلم الخاصة ومعدات التحشيش ٠٠ كانت أيضا لا تمانع فى شد نفس أو نفسين من

الغابة .. فهذا ليس حراما ولا باطلا .. هكذا كانت تتصور .. فى الليل لا ينزل الولدان ليسلما عليه .. فقط عند الصباح عندما يدعوهما اليه .. يملى عينيه بفتوتهمـا وكمالهما .. ينشرح قلبـه ويفيض فؤاده بالسعادة لأنه أنجب هذين الولدين .. هذين المقبلين على الحياة بشهادة الطب .. له أن يفخر .. ويرتفع بقامته الى السماء .. كان دائمـا يقول فى مجالسه الخـاصة انه سيوقد الدرب الأصفر بالمشـاعل ويقيم الأفراح والليالى الملاح ثلاثة أيام مستمرة .. كان دائم الفخر بهما .. دائم المحبة لهما .. وبالرغم من أن له ابنـة أخرى فى التعليم العـالى تدعى « سماح » من زوجته الثانية المطلقة .. وتعيش معه فى بيته الكبير على النيل فى الزمالك مع زوجته الأخيـرة التى رضى بها وقنع .. زوجته الأخيرة احدى بنـات العـائلات الكبيرة ، تزوجها بعد أن استبدل نفسه فى السنوات الأخيرة وارتدى ملابس الأفندية والكرافت .. وأصبح « أفندى معتبـر » .. وفتح معرضين للسـيارات .. واحدا فى باب اللوق والآخر فى الزمالك .. بل كان يسافر أحيانا الى الخارج مصطحبا زوجتى الأخيرة أو ابنته سماح للتعاقد على شراء العربات .. ولكن هذه التجارة وهذا التغير لم يوقف اهتمامه بعمله الأصلى .. تجارة المخـدر على أوسع نطـاق حتى بات يهـدد أصحاب المهنة الأصلاء وسلاطين المهنة الذين لا يرون مهنة أخرى أو حياة أخرى غيرها .. لذا كانوا يقولون

عنه فى الأوساط : برعى الداهية .. كان يسعد بهذا اللقب الجديد بدلا من الكشر الذى ورثه أبا عن جـد بدون أى ذنب جناه .

بعـد المغرب أغلقت أم عمـاد دكانهـا القـريب من الصنادقية بمساعدة ابنها الثانى ماجد .. واختطـا الاثنان الطريق الى الدرب الأصفر ، مرورا على قلاوون وبرقوق وأخيرا الأقمر .

لم تنس قبل عودتها أن تشـترى بعض الأشياء . وتغامز الشبان الجالسون على مقهى الدنف أن الليلة ليلة الجمعة .. الليلة الموعودة التى يزورها المعـلم الكشر .

بعد انتصاف الليل .. خمد الحى تماما .. وفقـد أبهته ونشاطه .. حتى المساكين الذين كانوا يرقدون عند سبيل السلحدار ملتحفين السماء من التعب .. بينما ظلت عربات البرتقال والترمس مستيقظة معطلة الى الصباح كرغبـة فى التغيير فقط .. حتى حمـام الملاطيلى .. أطفأ مصباحه الخارجى واستعاض عنه بشعلة خافتة .. حتى أمنـاء الشرطة تركوا أماكنهم المعتادة وحركتهم الدءوب ـ ليجتمعوا فى مكان واحد خلف قبة نجم الدين الأيوبى حيث غرزة بسيطة تعيش الليـل بدلا من النهـار .. يلتفون حول موقـد به نار

مشتعلة وأكواب الشاى الصغيرة الساخنة ٠

فى هذا الهدوء المميت الراقد على أنفاس الحى حتى يبدأ النهار دورته ٠٠ دخل ثلاثة رجال ، تخفى ملامحهم الظلمة ٠٠ الى بيت أم عماد ٠٠

فى سواد الليل والناس نيام ٠٠ سمعت صرخات مدوية قاسية من الحزن والكمد ٠٠ استيقظ قلة من النائمين وجاء أمناء الشرطة المجتمعون مهرولين الى مكان الحادث ٠٠ وتحرك المساكين الملتحفون بالسماء التى لا ترحم أحيانا ٠٠ وبدت بقعة الدرب الأصفر كأنها مضاءة باللون الأصفر المستعار ٠٠ وجاء مأمور القسم الذى كان نوبتجيا هذه الليلة وسريعا أقبلت الحكمدارية وجاء أيضا رجال كبار يضعون المقصات على أكتافهم ٠٠

جريمة بشعة فى الدرب الأصفر ٠٠ هكذا ظهرت مانشتات الجرائد الصباحية فى صفحاتها الخاصة بالحوادث ٠٠ مقتل شابين فى مقتبل الحياة ٠٠ كانا يستعدان لنيل دبلوم الطب بعد شهرين فقط ٠٠ الأم المسكينة أصيبت بطلقة فى ذراعها وأخرى فى بطنها وهى تحاول انقاذ أحد أولادها ٠٠ صور دموية ٠٠ تصور الموقف بحذافيره ٠٠ والدماء حول الجثتين وعلى الحوائط وعلى الأرض ٠٠ صورة نادرة للأم

المفزوعة المكلومة فى أولادها ٠٠

أشار المحقق فى الجريمة لوجود بقايا وليمة فى الطابق الأول وزجاجة خمر فارغة وبرطمان معسل يشير لوجود قعدة خاصة ٠٠ وكأن المرأة كانت على موعد شاذ ٠

أشار البوليس ثلاثة أيام متواصلة الى الجريمة وان والد الشابين رجل له هيبته ، تاجر كبير فى دنيا العربات المستوردة الفارهة ٠٠ ولكن لم يذكر اسمه اجلالا واكبارا لاسم الرجل المصاب ٠

بعض الصحف والمجلات الأسبوعية التى لا تترك فرصة الا وجذبتها فى اتجاهها ٠٠ حللت سبب الجريمة ٠٠ هو الثأر القديم بين العائلات ٠٠ بعضهم ابتذل وقال ان المرأة كانت على موعد مع عشيق لها ٠٠ ولكن فى اليوم التالى اعتذرت المجلة اعتذارا شديدا على سوء تفكير محررها ٠٠ وأغلق الباب تماما على الجريمة قبل التحقيق فيها وقبل أن يرتوى البشر المتحمسون لمصاب الآخرين ٠

ـ ٥ ـ

في الصباح المبكر تناهت الى حارات الباطنية صرخات الحزن وتأوهات الثكالى ·· هناك في درب المسن المسدود القريب من باب المحروق ·· كان بيت الحزن ·· بدأ بدق عروق الخشب ايذانا لاقامة سرادق كبير ·· الأصوات المنغمة والصرخات التى تدمى القلوب قادمة اتية من المنزل الكبير الواسع ذى الطابق الواحد ·· وتوالت الصرخات والبكاء على الذى ذهب ولن يأتى ثانية ·· وماذا بعد رحيلك ··

وازدحم الدرب المسدود بالمشيعين والنساء الباكيات اللاتى يلطمن الوجوه ·· أهل الباطنية

البسطاء متعجبون من ذلك الميت الذى يكن له أهله كل هذه المعزة والاهتمام ·

لا يعرفون عن بيت الحزن غير أن ساكنيه عجوز وزوجته من المعدمين البسطاء ، لا يعرفون أن أحدا زارهم من قبل أو أن لهما قرابة من بعيد أو قريب ·

وفى الحادية عشرة ·· تحرك البوليس من رحبة بهادر المقدم حيثأقام له كشكا منيوم الكبسة المشهورة ·· ليراقب تلك الجنازة الحارة التى لا يعرف البسطاء ان كانت لرجل أو امرأة ·· وظهرت الخشبة الضخمة التى تحوى على أقل تقدير جسدا طوله متران ·· ملتفة بالقماش المزركش بالورود الخضراء القاتمة ·· ووراءه تحركت مجموعة من المشيعين حتى خرجت من شارع الباطنية وأصبحت بين الأزهر وجامع أبو الدهب ·· وقبل أن يتحرك البوليس وراء الجنازة الحارة والنساء الحافيات الأقدام اللاتى يحطن الخشبة يلطمن الوجوه ·· وتحول المشهد الى مأساة حقيقية توجع القلوب ·

توقفت عربة سوداء ضخمة خاصة بالأموات ·· وتم نقل الخشبة داخلها باحتراس وتقديس ·· وتفرق المعزون فجأة كأن الأرض بلعتهم ·

قال أمين شرطة متعجبا لزميله وهو يرى العربة السوداء تبتعد فى اتجاه الميدان بسرعة غير طبيعية :

ـ أول مرة أرى فيها أحد الميتين من سكان المنطقة لا يصلون عليه فى جامع الحسين كرم الله وجهه ·

بعد تحرك الخشبة فى طريقها المرسوم ·· تم فك السرادق ·· وخمدت تماما أصوات الحزن ·· وأغلق البيت من الخارج ·· ولم تفتح الا بعد أسبوع وظهر العجوز وزوجته فى الحى ·· يسيران ، يتحركان بطريقة عادية تماما ··

الخشبة كانت فارغة من جسد ميت ·· ممتلئة تماما بفرد الحشيش البكر ·· الذى تم نقله فى الليل ما بين الثانية والرابعة صباحا من تربة خوند أم الملوك التى تقع خلف تل قطع المرأة ·· تحيطها كيمان من الزبالة من كل جانب ·· وعن طريق الأولاد الصغار وتحت مراقبة مساعدى عائلة العقاد تم نقل الكمية الموجودة فى التربة بعد أن وصلت اخبارية الى « العقاد الجد » بأن البوليس سينقب عن المخدرات فى التربة الأثرية القريبة من الدراسة والباطنية على وجه الخصوص ·· كانت هذه الحيلة القديمة هى الملجأ الوحيد لخروج أكبر كمية من الحشيش الخام من المنطقة ·· لتعود الى موطنها الأصلى ·· هناك فى

الجبال عند الصف ٠٠ المدينة الأم التى تشبه المضيق أو بؤرة دخول المخدرات الى الصعيد أو القاهرة ٠

عند الظهيرة من اليوم نفسه وصلت الشحنة القادمة من الباطنية الى مغارات المعلم « أبو فارس » ٠٠ أحد العربان الذين يتحكمون فى بلدة الصف ، يجمعه هو وأسرة العقاد نسب ومودة قديمة ٠

وفى مغارات الجبل ٠٠ بدأ على الفور فك القماش ورفع الغطاء ٠٠ وتجميع « فرد » الحشيش البكر لبداية خلطه بعد تفتيته الى قطع محددة وتسييحها على رقعة صاج تحتها نار هادئة ٠٠ واضافة الحنة واللبان الدكر اليها ٠٠ واعادة تبطيطها لتكون مثل كفة اليد الكبيرة ٠٠ وتوضع فى القماش الدمور وتكبس ٠٠ بعد تحديد الوسط لصنع حرفين فى اتجاه الكف ويملأ حول الحرفين بالحشيش الجيد ٠٠ حتى اذا ما جاء التاجر ليذوقه أو يشمه ٠٠ يجده ناصعا من النوع المعتدل وليس من النوع المضروب ، ويقال أن اللبان الدكر فائدته أن يجعل « الفرد » يمكن قطمه فى أى محاولة باليد وهذا تأكيد بأن الحشيش لم يفسد ولم يغش ٠

والتاجر الناصح يعرف بالتأكيد هذه المحاولات ولكنه يشتريه لأنه الموجود بالأسواق ٠٠ وفى المغارات تم توزيع البضاعة على التجار قبل الغروب ٠٠

بعضهم طلب أن يتسلمه فى المغارات وبعضهم طلب أن يسلم له فى منطقته قابلا أن يدفع الأتاوة المحددة لها ٠

كثير من التجار الذين أخذوا حصتهم ٠٠ قابلهم العربان المسلحون فى طريق حلوان الصف واعتدت على غالبيتهم وأخذت منهم عنوة ما أخذوه منذ عدة ساعات فى المغارات ٠٠ عرف البوليس فى ساعة متأخرة من الليل ٠٠ نبأ خروج المخدرات من الباطنية الى الصف ، بعد أن اشتكى بعض التجار الذين نهبوا فى طريقهم الى بلادهم بطريقة غير مباشرة ٠٠ اذ قاموا بتبليغ المخبرين الذين يتعاملون معهم ٠

فى الليل الأسود ٠٠ داهم البوليس مغارة الشيخ أبو فارس ٠٠ لم يجدوا الا بقايا من أكياس الدمور وأختام الحشيش المصنع : زهرة لبنان ، السبعين ، اكسترا ، مبروك ٧٧ ٠٠ وأكواب صغيرة وبراد شاى متسخ ٠٠ وبقايا أخشاب محروقة ٠٠ وخشبة الميت التى رأوها تتحرك فى اتجاه التبليطة فى الصباح نفسه ٠

- ٦ -

من حارة سعد الله ٠٠ الواقع على زاويتها « جامع أصلم » القريب من باب المحروق الذى أنشأه بهاء الدين أصلم السلاحدار سـنة ست وأربعين وأربعمـائة ٠٠ وأصلم أصلا من مماليك الملك أشرف خليل ٠٠ فلمـا حضر الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد شدته ونفيه فى الكرك الى مشارف القـاهرة ٠٠ خرج اليه أصلم وبشره بهـروب بيبرس الجاشنكير ٠٠ فأنعم عليـه الناصر محمد بأمرة عشرة ٠٠ ثم تنقل الى أن صـار أمير مائة وأحد المشايخ الذى يجلس على رأس حلقة ٠

من حارة سعد الله ٠٠ خرجت « صفية » ابنة العقاد عند الظهيرة وراءها خادمتها العجوز ناعسة ٠٠ هذه

هى عادتها منذ يوم طلاقها من زوجها الشاب الذى كان أحد صبية فتحى العقاد والذى قبض عليه منذ سنوات أثناء توزيعه المخدرات ٠٠ ومن ثم تم طلاقها من زوجها وهو فى السجن ٠

وصفية هى المرأة التى رغب أخوها فتحى العقـاد فى تزويجهـا الى برعى الكشر عنـدما أحس أن برعى يحـاول أن ينقلب على عائلة العقـاد ٠٠ والاستقلال بنفسه وبتجارته والخروج على السلطنة ٠٠ فى سبيل طموحه ورغبته فى أن يكون معلما له سطوته وصبيانه وتجارته ٠

وظلت صفية قابعة فى البيت القـديم فى الباطنية تخدم أباها المشلول العاجز وأخـاها حنفى الـذى لم يتزوج رغم أنه تجاوز الخمسين منذ عدة سنوات لسبب لا يعرفه أحد ٠

وقبل طلاق صفية من زوجهـا السجين ٠٠ تعرفت بشاب رقيع يعمل فى احدى محلات الغورية للملبوسات والخردوات والأقمشة الشعبية ٠٠ كانت متجهة ذات يوم مع خادمتها لشراء بعض الملابس الداخلية لابيهـا العجوز ٠٠ فقابلت ذلك الشاب البائع فى المحل ٠٠ لم يكن عمره يتجـاوز العشرين ربيعـا فى هذا الوقت ، ولكنه عـايق مختال بنفسه ، شبابه وجمـاله الملحوظ

الذى لا تخطئه عين ٠ وخاصة اذا كـانت محرومة من دفء الرجل ٠

سعى الفتى لمعرفتها ومغازلتها فى المحل الخالى فى تلك الساعة ٠٠ الا منـه ومن الزبونة وخادمتهـا ٠٠ بالرغم من معرفته الجيدة أنها أبنة العقاد وأخت فتحى العقـاد المعروف بوحشيته وسطوتـه فى التغلب على أعدائه ٠٠ شبابه ورعونته أعطياه حق تلك النـزوة ، التى أثمرت الجذوة فى قلب المـرأة ٠٠ وكان من أمر ترددها بعد هذا اليوم على المحل مع خادمتها التى لا تفارقها كتقاليد العائلات القديمة فى الباطنية ٠٠ فى هـذه المرة كـانت تبحث عن بعض الملابس الداخليـة الخاصة بها ٠٠ وفهم الذكـر الطـائش السبب وراء زيارتها للمحل ٠٠ ولم يجعلها تخرج من المحل الا بعد أن أعطته موعدا فى مكان بعيـد عن الحى تماما ٠٠ ومع ذلك تداولت الألسنة الخبيثة هذا الغرام المشبوب الذى يجمع بين أخت العقـاد وذلك الفتى « المستحلى نفسه » ابن الضببية والذى لم يأخذ التوجيهية بعـد ، ويعمل فى المحل بالقطعة ٠٠ وليس عنده من الدنيـا الا شبابه ووسامة لم يصنع بها شيئا ٠٠ وشقاوة أولاد منطقة لم يعرف فى سبيل معرفة أسرارها ٠٠ ونزوة طارئة لا تضر ، فى هذا الزمن الملىء بالأيام المستهترة، يحدث أفظع منها ولا أحد يقدر على الحديث عنها ٠٠ وقابلته صفية فى محـل خاص فى مصر الجديدة ٠٠

بعيدا تجلس الخـادم فى صمت وترقب ·· فالحديث على المقاهى وفى الحجر المفروشة ليس من صنعها·· ولكن من صنع الفتى الأحمق الذى أراد فى ليلة غلبه فيها المخدر وجمعته الصحبة ·· أن يتباهى فى وقت خاص من الليل بمعرفته لسيدة من علية القوم وخاصة فى المنطقة ·· من الباطنية وأخت فتحى العقاد ·· ولما أراد الصحبة تكذيبه ·· أراهم منديلها وصورتها التى أعطتهـا له ·· وكثرت الاشاعات حتى ملأت كل بيت وكل خرم ·· وعرف الجميع حتى الصبية ·· ولكن لم يستطع أحد توصيل الخبر الى السلطان الكبير أو أبيه المشلول ··

ولأن الغرام شـائق وشائك ·· اتفقت صـفية مع خادمتها ·· على أن تجد لها مكانا خاصا يمكنها فيه مطارحة الغرام ·

وفى اليوم الموعود ·· تقـابلا ·· صـفية والفتى وذهبـا الى الشـقة الخاصة التى أصبحت مسـتودع أسرارهما ·· هكذا تصورت صفية ولم تعرف أبدا أن خطواتها محسوبة وخاصة بعد وفاة الولدين واصابة الأم بعاهة مستديمة··فذهبا معا الى الشقة الخاصة، وانتظرتهما الخادم فى مكان قريب ، لتعود مع سيدتها متى آذنت ·

وفى هذا اليوم الموعود ·· وهمـا فى لحظة نشوة مسروقة ·· دق عليهما الباب وقام الفتى مفزوعا ·· ليفتح البـاب ·· ليقـابل رجلين مسلحين ·· يقومان بعملية القتل الرهيبة ··

وكان التصور أن تبدأ الصحف فى نشر الجريمـة الجديدة ·· وتهز الفضـيحة منطقة البـاطنية ·· ولا يستطيع العقاد الكبير رفع رأسه أمام الناس ، يعيش عمره مذلولا محنى الرأس أمام الجميع ويموت فتحى العقاد من الصدمة فى السجن ·

ولكن الخادم الهمام التى كانت تنتظر قرب الباب ·· سريعا ما تسرع لاخبار سيدها الكبير بالخبر المفزع ·· وتظهر جرائد اليوم التالى ·· والأيام التـالية ولا خبر واحد عن الحادث أو الفضيحة المدوية ·

واذا سأل أحد عن صفية ·· تكون الاجابة واحـدة وجاهزة ، سافرت الى السعودية مع زوجها الجديد·· أى اسم وأى مهنة ·· ويصمت الجميع ·· وتتنـاثر الاشاعات مرة ثانية ·· واحد يصدق وعشرة يكذب·· بل بعضهم يقول : ظلمتم العقاد وعائلتـه بالحديث عن ابنته المطلقة ·

ولكن البوليس يشعر بالحيرة الشديدة أمام الجرائم

الرهيبة التى تحــدث بسهولة فى هــذه الأيام ٠٠ فى الباطنية ومن كان يسكنها فى فترة ماضية قبل انتقاله الى ساحة أخرى قريبة مثل الدرب الأصفر أو الزمالك ٠٠ وتتشعب الخيوط ٠٠ ويتوه الرجل ٠

والعقاد الكبير يعرف من هو الفــاعل ٠٠ ويجتمع مرة ثانية مع مجموعته وصبيانه ٠٠ ليعاود الانتقــام الرهيب من برعى الكشر وجوقته ٠

ـ ٧ ـ

تقابلا هناك ٠٠ على الدرجات الرخامية المتســعة المؤدية الى خارج الكلية ٠٠ نادى عليها ٠٠ وتصنعت عدم السماع ٠٠ ثم لحقها وأمسكها من ذراعهــا ٠٠ ونظرت له فى دهشة مصطنعة ٠٠ كانت ترتدى رداء أسود مقفولا بكولة بيضـــاء ، غــاية فى الأناقة تحت ابطها بعض الكتب الجامعية ٠٠

ـ صباح الخيا يا سماح ٠٠ ألم تسمعينى ٠٠

ابتسمت ابتسامة مصنوعة وردت عليه متمنية له صباحا سعيدا ٠

ـ الى أين ؟

ـ انتهيت من دروس اليوم ٠

أدهم العقاد تربطه صداقة قوية بسماح برعى منذ الطفولة ، وخاصة أن معلمى الأول فى دنيا المخدر كان هو المساعد الأول لأبيه .

تطورت صداقة أدهم وسماح الى حد الحب والاقبال على الزواج لولا الظروف .. وانفصال برعى عن عالم السلطان العقاد .. ثم حادث الكبسة المشهورة .. ثم حوادث القتل بالجملة .. فى تلك اللحظة ، كانت سماح ترتدى السواد على أخويها الراحلين .

قال أدهم لسماح : هل نترك الكبار فى سبيل الأخذ بثأرهم ، يدمرون حياتنا معا ..

قالت سماح : لا أستطيع الحديث معك وسط فناء الجامعة .. قد يكون أحد مساعدى أبى موجودا الآن .. يراقبنى ويراقب أصدقائى .. خوفا من أن أقتل فى وضح النهار .. وان كنت أصبحت لا أهتم كثيرا .. حدث الكثير من المآسى لعائلتنا فى الأيام الماضية .. حتى أصاب النفس برود الكآبة .

ركبت عربتها الصغيرة الصفراء .. وابتعد هو ليركب عربته المرسيدس البيضاء .. وطول الطريق وبالرغم من ازدحام الطرق واشارات المرور اللعينة ،

كان يفكر فى سماح وماذا سيقول لها .. عندما يجلسان معا متقاربين .

نشأ معا فى حى الأزهر حيث كانت العائلتان تسكنان منذ سنوات .. قبل التفكير فى التغيير فى السكن وفى الحياة ذاتها مثل ما فعل أبوها الداهية .. دخلا معا كلية واحدة .. كتبا استمارتى القبول فى الجامعة معا .. تنازلت عن مجموعها الكبير لتدخل معه الكلية التى تسمح بمجموعه الضعيف .. فى بداية الدراسة كانا يستذكران معا .. تستقبله وتودعه بعينيها الناعستين الملونتين .. تنقل له دروسه .. تساعده فى استيعاب المحاضرات .. لم يهتما بانفصال الكشر عن السلطان .. كانت حياتهما ملكا للمرح والشقاوة والحب .. لا يدريان شيئا عن كوارث الأيام المقبلة وعقلية الآباء المتخلفة والصراع العتيد المدمر .

تخلف فى سنته الأولى بالكلية بعد أن قدم شهادة اعتذار عن الامتحان بواسطة طبيب مستأجر .. وفى السنة التالية رسب فى عدة مواد .. وبقى فى السنة الأولى وانتقلت هى الى السنة الثالثة .. وابتعد كل منهما عن الآخر بعد الشجار والخلاف الواضح الذى بات بين العائلتين عن طريق شهوة المال والقوة .. حتى حدثت جرائم القتل بالجملة ..

لم يتقابلا الا هــذا اليوم ٠٠ فى القلب بصيص من حب قديم ، كان يتصور أنه ماض انتهى ٠٠ فاذا به فى لحظة خاطفــة ، يعــود ليتمسك بالحب القــديم ٠٠ لم يحسب واحد منهما لحظة اللقــاء ٠٠ لذا جــاء فتيــا وعفويا ٠٠ وركبت عربتها وأخذ عربته ، ليتقابلا بعيدا فى مكان هادىء لا تلحظه العيون الحاسدة ٠٠ عندما جلسا معا ٠٠ العيون فى مواجهة بعضها ٠٠ الشفاه ترتجف بحمى البعاد والتمنى ٠٠ القلبان لا يستطيعان طويلا اخفاء ما يعتلج بداخلهما ٠٠ الحديث بدأ خجلا هامســا ثم استرسل وعذب ٠٠ أيام طويلة تبــاعدنا فيها عن بعضنا البعض ٠

ولكن بعد لحظات من النشوة والحب القوى الذى لا يستطيع أحد أن يداريه الا اذا كان لعينا أو قادرا ٠٠ قالت : ولكن لن يستطيع أحدنا رؤية الآخر مرة ثانية ٠٠ كما فعلنا هذا الصباح ٠٠ حتى الأمل فى الصداقة لم يعد له وجود ٠

لحظات كثيرة كنت أتذكرك ٠٠ أتمنى أن أراك ٠٠ أسمع صوتك ٠٠ كثيرا ما فكرت أن أدير قرص التليفون وأطلبك لمجرد أن أسمع صوتك ثم أقفل السكة ثانية ٠٠ ولكننى غالبت نفسى ، وأمسكت أعصابى حتى لا تفلت منى ٠٠ كنت أضم أصابعى على كف يدى حتى لا أجن وأطلبك ٠٠

حاولت أن أعرف أصدقاء جددا ٠٠ بل تعرفت على كثير منهم يشبهونك فى الكثير ٠٠ ولكنى كنت أخفق معهم دائما ٠٠ عندما أفكر فى استبدالك بآخر ٠

وقال لها : مازالت صورتك عندى أحتفظ بها فى درج مكتبى ٠٠ حقيقة حتى لا أكذب وأنا معك ، نقلت صورتك من فوق المكتب الى داخــل أحــد الأدراج المغلقــة هى وخطاباتك التى مازلت أشم عبيرها ٠

كل ما جرفنى الشوق اليك ٠٠ ولكن الآن ٠٠ ونحن فى هذه الظروف المدمرة وحوادث الموت بالجملة ٠٠ نحن فى حاجة أكثر للارتباط حتى تقف العــائلتان عن تدمير بعضهما البعض ٠٠ ولمصلحة من يتم كل هــذا ٠٠ لمصلحة التجار الآخرين ٠

قالت : لا أحب منك أبدا هذه الكلمة ــ المصلحة ــ عشت دائما وأنا أكره شيئا واحــدا فيك ٠٠ المصلحة والفائدة ٠٠ وماذا أستفيد ٠٠ هذه الكلمات والمشاعر لا تصلح مع الحب الحقيقى ٠

قال وابتسامة على شفتيه : هذا هو الفرق ٠٠ الفرق الأبدى بين حب الرجــل وحب المــرأة ٠٠ وأنا أحبــك بطريقتى ٠٠ وأنت تحبيننى بطريقتك ٠٠

وانتهى اللقاء بين الشابين ليس على أمل ولكن على انتظار ·· فكل منهما لا يتجاسر أن يبوح لأهله بما يكنه للآخر من مشاعر ولو حتى على طريقة الذكريات القديمة ·

ـ ٨ ـ

فى ادارة مكافحة المخدرات ·· تم نقل أحد الضباط الشبان من منطقة أسيوط الى القاهرة بعد أن تقدم لخطبة ابنة أحد الوجهاء الذين لهم كلمتهم ·· وتم استلام الضابط الشاب العمل فى الادارة ·· وبعد أسبوع من استلامه العمل فى الادارة ·· أثاره موضوع حوادث القتل البشعة التى جرت فى عائلة الكشر وعائلة العقاد·· والاثنان معروفان ومشهوران بالعمل فى تجارة المخدرات ·· ولو أن الأول أصبح يكسو وجهه بمظهر الوجهاء الذين يتاجرون فى السيارات وتزوج منذ سنوات بامرأة ذات عائلة ونسب وانتقل الى الزمالك· الاثنان الكشر والعقاد

معـروفان لـدى الادارة بسـعة سلطانهمـا وكثـرة مساعديهما وصبيانهما وأتباعهما الذين يعملون تحت امرتهما فى البحر الأحمر والصف وأسيوط ٠

عندما حاول « أحمد مسعود » الضابط الجديد ٠٠ البحث فى حوادث القتـل وكيفية ايجـاد طريقة لادانة الطرفين ٠٠ أو حتى الوصول الى السبب المؤدى الى حوادث القتل ٠٠ وجـد اعراضا غامضـا من رئيسه بحجة أن العائلتين وصلتـا الى مرحلة قتل بعضهمـا البعض ٠٠ وهذه مرحلة عظيمـة للبوليس ٠٠ فهمـا ستستمران فى حوادث الاغتيـال الى حـد الانتحـار وتشطيب العائلتين من الوجود ٠

أحمد مسعود كـان له رأى آخر شـاب ٠٠ وهو أن بعض الأبريـاء سيـلاقون حتفهم فى هذا السبيل مثل الطالبين ٠٠ مثل المرأة وفتاها الذين كانا يحاولان أن يجـدا لحظة متعة محرمـة ٠٠ لا يكـون الرد عليهمـا بالموت ٠ ٠

ولكنه لم يجد آذانا صاغية لمحاولاته فى البحث عن المجرم المؤدى الى هذه الاغتيالات البشعه ٠ ومحاولة القبض على أفراد العـائلتين قبل أن تستفحل حوادث القتل بالجملة التى تؤذى الانسان العـادى أيضا فى مشاعره ٠٠ وكان رد رئيسه أن الصحف لن تنشر بعد

الآن أى حـادثة قتل تخص العائلتين ٠٠ وكـاد أحمد مسعود أن يجن من هذا المنطق ٠٠ بعض أولاد هاتين العائلتين أبرياء من آثام آبائهما وأجدادهما ٠٠ ليس لديهمـا يد فى هذه التجـارة اللعينة والصراع الدائر حولها ومن الذى سيفوز أخيرا ٠٠ حتى ولو تم تدمير كل واحد منهما ٠٠ سيظهر آخر ٠٠ بل سيقوى آخرون فى هذا العـالم الرهيب ٠٠ بخلو السـاحة من أفراد العقاد والكشر ٠٠ عمل البوليس هو منع القتل والنهب والسرقة ٠٠ وفى حالتنا كأننا نساعد على الموتوتدمير النفوس مخطئة كانت أو بريئة ٠

ولم يفهمه أحـد وكره نفسه ، وكره خطيئته وكره النسب الجديد الذى أتى به الى القاهرة وجعله ضعيفا حائرا فى سبيل الكلمة الحقة والمبدأ الانسانى ٠

أحمد مسعود ٠٠ شـاب فى الخامسة والعشرين ، متوسط الطول ، باسم التقاطيع ، هادىء الأعصـاب من الخارج وان كان داخله يغلى دائما بالالتزام والمثالية وحب الانسان مهما كـان فاسدا أو طيبـا ٠٠فهو يثق تماما أن المجتمع هو أم وأب لكل بشر ٠٠ وأى فساد ٠٠ يكون سببه هو النظام ٠٠ وليس البشر فى حد ذاتهم ٠

لذا راجع نفسه طويلا وقرر العمل بمفرده فى أوقات

أجازاته من العمل ·· يصاحبه أحيانا أمين شرطة يثق به ثقة عمياء ··

أحمد مسعود من مميزاته أن لـه قدرة على التأثير على الآخرين الذين يقلون عنه فى رتبهم وفى مستواهم الاجتماعى ··فقط لأنه يحب البشر ·· ويجد متعته وسعادته ولحظاته الحقيقية معهم ··ليس مع الكبار أو السادة الذين دمرهم الصراع الطويل والشهوة ومسئولية الاولاد والعائلة والشارع والحى والمظهر اللامع ·

بدأ الخيط بزيارته أم الولدين فى المستشفى أثناء خلو حجرتها من الزائرين ·· امرأة فى الخمسين ·· راقدة فى الفراش ، يظهر على وجهها امارات الفزع والذعر تربط عينيها الاثنتين ·· ضمادات تلف صدرها وذراعها المصابة ·· المرأة أصيبت بالشلل والعمى المؤقت نتيجة للحادث ولفقدها ولديها الاثنين فى لحظة واحدة ·· نموذج رهيب لما يعمله الانسان فى زميله من أجل السطوة والثراء ·· المرأة بسيطة ثرثارة كعادة البسطاء ، قدم أحمد مسعود نفسه لها على أنه زميل لأحد ولديها فى الجامعة ·· بعد لحظات من الحزن والتأثر ·· انتقل الحديث الى المجرى الذى يريده أحمد مسعود ··

حكت المرأة الكثير عن زوجها صبى القهوة الذى أصبح فيما بعد أحد مساعدى المعلم الكبير العقاد ·· روت المرأة أيضا له حكاية غرام فتحى العقاد بالمرأة المغنية فى الموالد وعن طفلهما المنسوب الآن الى رجل آخر ·· حكت له عن زوجها وكيف أنه ابتعد عن تجارة المخدر مؤخرا بعد أن تاب الله عليه ـ هكذا تتصور المرأة المحطمة ـ يعمل الآن فى تجارة السيارات ولكن اللعنة بقيت حوله وخلفه ·· تؤذيه وتفقده ولديه ·· لعنة المخدر هى السبب فى كل مصابها وشقائها ·· بكت المرأة وهى تحكى حكايتها الأليمة مع الزمن الغادر ·· حطام بشرى يودعه أحمد مسعود قبل أن يسير فى الطريق الى نهايته ليكشف عن المجرم الحقيقى وراء كل هذه الحوادث ·

ازداد اصرارا على مواصلة طريقه بعد رؤيته لتلك المرأة التى لا يستطيع لها أحد الآن نفعا أو ضرا بعد أن فقدت كل شىء ·· وهل تبقى شىء للمرأة تعيش به غدها ·· لو يرحمها الله ويريحها من هذه الحياة ·

الخطوط القادمة ·· كانت عند حضرة فاطمة النبوية ليلة الثلاثاء ·· كان أحمد نوبتجى تلك الليلة ولكنه اتفق مع زميل له على تغيير الدور ·· ذهب هذه الليلة ومعه أمين الشرطة ·· مرتديا ملابس « أفندية متوسطى الحال ·

وفى نهاية الحضرة ٠٠ تنشط قعدات الحشيش والبرشام والحقن ٠٠ دخل أحمد مع زميله فى زمرة احدى جوق العابثين وخاصة بعد انضمام وردة بنت كسرى المداحة الى هذه الغرزة بالذات ٠٠ والدور داير والدخان يملأ الجو ٠٠ بدأت معرفة المداحة بالقادمين الجديدين « أحمد وزميله » ٠٠ المعرفة التى توطدت على مدار الأسابيع القادمة الى صداقة قوية ٠٠ وفى ظل الحضرة والحاضرين الغائبين عن واقعهم متعتهم الوحيدة هى المخدر والسكينة التى يشعرون بها فى أحضان المخدر ٠٠ ورأى أحمد رؤية الحاضر ٠٠ الواقع الغريب الذى يعيشه المساكين المطحونون ومسراتهم الخبيثة التى ترميهم صرعى المرض وهم مازالوا فى سن الشباب ٠

والقمر النصف على وشك المغيب ٠٠ كان هناك صف يقف بجوار فاطمة النبوية ٠٠ كل واحد يريد نصيبه قبل بداية النهار ـ بخمسين قرشا ـ قوته وقوت عياله ـ ربع كوب شراب أصفر ٠٠ بقايا ورق الأفيون الأصلى بعد غليه فى الماء الساخن ٠٠ غير الأقراص التى انتشرت والتى كادت تشل الغالبية من الشباب ٠٠ هذا هو المستعمر الجديد الذى يدب بأقدام صلبة فوق أجساد المراهقين ٠

والقمر النصف على وشك الرحيل ايذانا ببدء نهار

جديد ٠٠ توطدت صداقة الضابط الشاب القادم فى ملابس أفندى بسيط بابن المداحة « محمود أبو دومة » الذى كان جالسا صامتا طوال الحضرة وأثناء انهماك الرجال والنساء فى التدخين المخدر ٠٠ لقد لفت نظر أحمد ذلك الشاب النحيف الذى تبدو عليه الكآبة والصمت كأنما ولد بهما ٠

بعد دورات التحشيش ٠٠ كان بعض الرجال يرقصون ، يتحركون ، يصرخون أو ينزوى بعضهم فى ركن خاص ٠٠ مثل بعض الكلاب التى على وشك الموت ، يجترون أحزانهم ٠٠ أما محمود أبو دومة فكان يجلس صامتا يتفرج على المجموعة بدون مشاركة منه ٠٠ فلما سأل أحمد الضابط المداحة عن ذلك الشاب الصامت ٠٠ عرفته المداحة بابنها ٠٠ وتقابلت نفس بشرية مع أخرى ٠٠

تحركا معا والنهار يرسم خطواته ببطء على الأبنية الفقيرة المائلة ، على حجارة الطرق الأرضية ٠٠ قبل الافتراق وصف محمود أبو دومة للضابط الشاب مكان جلسته المفضلة عند أسوار القاهرة القديمة أو عند عتبة جامع سيدى عبد الله الجوينى القريب من فاطمة النبوية والذى لا يؤمه الكثيرون لبساطة مظهره وضآلة حجمه وقلة رصيده من الشهرة ٠٠ اتفقا على اللقاء بدون موعد ٠

- ٩ -

من قرية أبنوب القريبة من مدينة أسيوط ·· جاء « عبد الرحمن الناعس » ·· التاجر الكبير الذى يزرع أرضه والتى تبلغ ستين فدانا حشيشا أو نبات القنب أو الدبابيس كما يطلق عليها العوام · تترك الثمــار حتى تجف ·· ثم تطحن وتذرى وتخرج منها الدبابيس الرفيعة أو البذور الجديدة ·· التذرية الأولى والتى تلزق على الستاير البفتة التى تحيط المكان ·· تكون « الهبو » ·· النخلة الثانية ·· « الغبارة » وهكذا حتى البقية الباقية التى لا تخلو من صحن البذور يطلق عليها العوام كبس نمرة ٤ أو الجــلة التراب بعد مزجهـــا بالزيت وبعض مواد العطارة ·

الرجل يحيط أفدنته الستين برجال أشداء من المطاريد الهاربين من الأحكام الشديدة ·· يعيشون فى الجبال القريبة من أسيوط · بينهم وبين رجال البوليس ثأر قديم وقتال مستمر ·

جاء الناعس الى القاهرة فى سبيل الصلح بين عائلتى العقاد والكشر بعد اشتداد القتال بينهم وموت أكثر من واحد من العائلتين ·· جاء بهدف وقف القتال الذى سيدمر التجار الكبار ، ويفسح الطريق والمجال أمام التجار الضعفاء الذين يخافون البوليس والمقاطعة ستتناثر الى ذرات وسطها أشلاء وجرحى ودم لا يفيد أحدا سوى الصبية المرتعشين ·· الذين ينتظرون هذا اليوم بفارغ الصبر ·

وصلت اشارة من مديرية أسيوط الى ادارة مكافحة المخدرات بالقاهرة ·· تفيد بذهاب التاجر الكبير عبد الرحمن الناعس الى القاهرة متخفيا ، كان الملازم أحمد مسعود أول من تلقف الاشارة ، كان فى تلك الليلة ضمن نوبتجية الادارة ـ بات هذه الليلة يحلم بالقبض على التاجر الكبير مع مجموعتى العقاد والكشر ·· وينتهى الكابوس أخيرا ولا تراق الدماء بعد ذلك والتى لا يذهب ضحيتها الا المساكين والنساء والعجزة ·

فى الصباح ، كان يدب بقدميه أمام رئيسه ·· يسلم له الاشارة ويطلب الاذن بالبحث الجيد عن الناعس فى الباطنية وأزقتها وأسوارها وفى محلات تجارة السيارات وفى الأماكن الراقية ·· ولكن رئيسه استمع الى كلامه فى هدوء وعدم اهتمام كبير مما دفع أحمد أن يتساءل فى وحشية عن السبب الذى يؤخر القبض على الناعس مع الخطرين فى القاهرة ·· بعد خروجه من حصنه الذى لم يستطع بوليس أسيوط اختراقه حتى الآن ·

أعاد رئيسه كلماته الهادئة الدسمة : لم يحن الوقت بعد ·· لن نقبض على أحد قبل أن ينهوا بأنفسهم المذبحة التى بدأوها ·

خرج أحمد غاضبا ·· ناسيا التحية الواجبة ··

عند الباب ·· قال رئيسه محذرا ·· لا تذهب وراء حتفك ·· ولا تسع للقاء الصعب · وصلتنى اخبارية : أنك ذهبت الى المرأة العجوز فى المستشفى وشاهدك بعض المخبرين فى الباطنية وعند فاطمة النبوية مع أمين الشرطة عبد العال ·· الذى أمرت اليوم بنقله الى أسوان ·

خرج أحمد ثائرا غاضبا متأزما يريد أن يكسر النوافذ ، يهدم الحوائط ، أن يدمى نفسه بأى طريقة ،

لعله يجد آلاما مبرحة تأخـذه من وهج وتمـرد النفس الذى لا يستطيع مفارقتها ··

عند الغداء فى بيت خطيبته ابنة الوجيه الأمثل ·· دار الحديث هادئا ناعما ·· حتى قال له والد خطيبته بطريقة عابرة وكأنه لا يقصد شيئا بالذات : أحمد ·· لقد عملنا على نقلك الى القاهرة لتنعم بالراحة والهناء ولنعمل على تأسيس بيت الزوجية القادم ·· لا أريد لابنتى أن تفقد عريسها فى أيام العسل ··

نحن نعمل على هنـائك وراحتك ·· ولكنك تغضب رؤساءك وتدخل بأنفك فى أمور لا تخصك ·· وترتاد أماكن مشبوهة وتوطـد علاقتك بأناس لا يقـال عنهم أكثر من أنهم حطام البشرية ·· مالك يا ولدى بهـذه الأمور ··

كنت أفضل أن تشغل نفسك بعروستك أكثـر وتهتم بترتيبات الفرح الذى سنقيمه اكراما لك ولعروسك فى أفضل فنادق القاهرة ·

قال الوالـد ضـاحكا : حتى الآن لم تقـل رأيك فى الأثاث الذى اختـرته لك ·· وفى ألوان الشـقة التى تريدها ·· أريد أن تشغل نفسك بهذه الأمور الرائعـة ولا تذهب بعيدا عنا ·

سمع أحمد فى سكون من تأتى له آلام الحمى المبرحة فى مكمنـه ولا يستطيع الرد ·· بل يقبل على ابتـلاع الغضب فى تؤدة ·

بعد الغداء مباشرة ·· خرج أحمد بدون أن يهتم حتى « بالفرجة » على مباراة الكرة التى يعشقها بعـد عمله ·· متناسيا حتى أن يقبل خطيبته كالمعتاد ·

قال الوجيه لزوجته أثناء الاستراحة بين الشوطين :

ـ هل قلت شـيئا خطأ لأحمـد خطيب ابنتك على الغـداء ؟

قالت الزوجة فى برود وهى تشعل سيجارتها : لا ·· ولكن بعض الناس يحبون المتاعب ·· لا أظن أنك ترضى أن تزوج ابنتك لهذا النوع من البشر ··

- ١٠ -

داخل دكـــان عــلاف ، مغطى بتعريشة من الخشب والقش وكتــل الطين ·· فى الداخــل ماكينـــة لطحن الحبوب ·· عبارة عن دائرة من الصلب تخرج منهــا يد حديد صــدئة وقمع فى قمـــة الدائرة ·· أسود من عامل الزمن ، ومجرى أسفل الماكينة ·· ينزل منه فى سهولة ويسر العلافة المطحونة ·

فى العــلو ، وفى جانب التعريشـــة ·· يمــــامتان يحوطهما عش الحب ، لا يستطيع أحد الاقتراب منهما ·· يعيشان فى محبة وود ·

حول ماكينة الطحن ٠٠ اجتمع الرجال ومعهم عبد الرحمن الناعس الذى حاول اصلاح ما حدث ٠٠ لنقفل الدفاتر القديمة والحزازات الموجعة ومقتل الأحباء والأبناء ٠

ولكن العقاد الكبير على كرسيه ذى العجلتين رفض المصالحة ٠٠ مازال يحز فى نفسه مقتل ابنته وعشيقها ٠٠ يخبىء المأساة داخل صدره ولا يعلنها وان كانت كل العيون والشفاة تعرف ولا تستطيع الكلام ٠٠ احتراما للشيخ الكبير ٠

وخرج الناعس ليعود الى قريته بجوار أسيوط غير آسف على ضياع وقته فى اصلاح ذات البين ٠٠ تاركا القدر وحده هو الذى يقرر مصير عائلتين من أكبر تجار المخدرات فى البلد ٠

فى نفس المنطقة وفى نفس الساعة على قهوة الأعسر القريبة من حوش بهادر المقدم كان يجلس الملازم أحمد مع صديقه الجديد محمود أبو دومة ٠

أشار محمود بطرف أصابعه على التاجر الكبير عبد الرحمن الناعس وهو يهرول على طريق التبليطة مسرعا بقدميه ٠٠ وحده ، ليس حوله خفير ولا مساعد

يحمل بندقية أو رشاشا فى طريقه الى الازدحام حيث يضيع الولد من أمه وهى لا تدرى ٠

ولم يستطع الضابط أن يفعل شيئا سوى الاغراق أكثر فى الحزن والألم على ضياع الفرصة تلو الفرصة ٠٠ حكى محمود لصديقه الذى استراح اليه حكاية زواج أمه من المعلم العقاد ٠٠ وعن أخيه أدهم الذى يقولون فى السر انه على علاقة حب قديمة بابنه تاجر المخدر والمنافس برعى الكشر ٠٠ الجميع يتحدث ٠٠ لكن لا أحد يستطيع أن يزعق بجانب العقاد الكبير ٠٠ حكى له أيضا حكاية صفية وعشيقها اللذين وجدوهما قتيلين فى منزل مستأجر من أجل المتعة ٠

كان أحمد يعرف كل هذه الحكايات مسبقا ٠٠ فقط لم يكن يعلم تفاصيل غرام الشابين اللذين تجمعهما دراسة واحدة وفصول متقاربة ٠

اشتكى محمود من غياب أبيه العقاد الذى أودع السجن منذ أكثر من ستة شهور ٠٠ حكى له فى خفة ٠٠ عن قلقه وانشغاله بأبيه الذى لا يهتم به ولا يكترث حتى برؤيته ٠

تألم أحمد فى الداخل ٠٠ ولكن كان وراءه أكثر من مشوار فى الطريق الذى اختطه لنفسه بعيدا عن

رئيسه الذى يريد تجميد الموضوع حتى الفناء أو دمار العائلتين ·· فقط رغب فى هذه اللحظة فى رؤية أدهم والجوقة التى يرأسها العقاد الكبير ·· رؤية العين الواضحة ·· فسار وراء محمود أبو دومة فى طريقهما الى حضرة فاطمة النبوية وغناء المداحين ·

هناك فى حارة الدليل ·· تقابل مع الجوقة ·· فى الأمام يتحرك الشيخ على كرسيه يساعده شاب رقيق أنيق ·· أشار محمود أبو دومة على أخيه الوسيم الوجه المميز المظهر ·

فى الليل اعتذر أحمد بوجع فى معدته يؤلمه وترك المنطقة ·· تاركا خلفه مقابر السبع بنات ·· سبيل كتخدا ، زاوية أبو اليوسفين ، عطفة الصايمة ثم درب الشعلان ·· وقف لحظة يتأمل الجامع الرهيب آق سنقر الذى يكسوه من الداخل القيشانى الأزرق ·· قبل مغادرة المنطقة سلم على صديقه ·· على وعد منه أن يقابله فى الليلة القادمة فى قهوة الأعسر ·· لاحظ أحمد ارتجاف صديقه وهو يقول : أخاف أن أفقدك ·· كما فقدت أبى الذى لم يهتم بى أبدا ·· أشعر أننى لن أراك ثانية ·· وعانق أحمد صديقه الرهيف الاحساس وهو يرجوه ألا يقول هذا الكلام ثانية ·· فسيراه غدا وبعد غد وكل الأيام التالية ··

ولكن كما قال الرهيف محمود أبو دومة ·· كانت هذه آخر ليلة يتقابل فيها الصديقان مرة أخرى ·· الصديقان اللذان جمعتهما حضرة فاطمة النبوية ومديح وردة بنت كسرى ·· واحساس محمود أبو دومة بالغربة والوحدة وسط الآخرين ·· حوله عيون الأقارب والجيران ·· وبحث أحمد الدؤوب عن الحقيقة ·· فى محاولة لايقاف تيار الدم ··

فى عصر اليوم التالى ·· وجد محمود أبو دومة مقتولا فى حارة أبو الأسعد ·· القريبة من بقايا سور صلاح الدين ·· الجناة قتلوه بواسطة حجر ثقيل على رأسه ·· يظهر أنه كان نائما بجوار السور كعادته وقت أن قام الجناة بفعلتهم الشنعاء ·

وصل الخبر الى أحمد فى مكتبه صباح اليوم التالى ·· كاد أن يجن وهو يرى صديقه فى مشرحة زينهم ·· وأمه « المداحة وردة » تبكى على صدره وهى تتهمه بدون كلام هى ترى بدلته الرسمية : انه السبب فى قتل ابنها الوحيد ·

أبلغ أحد المخبرين الموالين لجوقة العقاد موضوع صداقة الضابط الشاب بمحمود أبو دومة العاطل الرهيف ·· والذى لم يكن موضوع اهتمام بشر أو

طفل فى الباطنية الا فى ليلة اكتشاف جثته بجوار السور القديم ٠

قضى أحمد ثلاثة أيام يهذى مثل المجنون فى حجرته ٠٠ لا يستطيع الأكل أو النوم ٠٠ حتى شك أهله فى أنه أصيب بالجنون المبكر مثل خاله الذى قضى أيامه الأخيرة فى مستشفى العباسية ٠

ولكنه بعد أسبوع تماثل للشفاء بدون طبيب ٠٠ ساعده فى ذلك قدرته العظيمة على ابتلاع الألم ٠٠ وعاد كما كان قويا متمردا قادرا على تحطيم الأصنام واعلان الحقيقة ٠٠ ورغبته دون رئيسه فى ايقاف هذه المأساة الدموية التى تلتهم الأبرياء قبل أصحابها ٠

بعد عودته الى العمل كتب تقريرا عن كل ما حدث من يوم الكبسة المشهورة على الباطنية ومقتل الولدين حتى مقتل صديقه محمود أبو دومة ٠

فى التقرير يدين رئيسه بوضوح ٠٠ والذى أضاع بأسلوبه النمطى ٠٠ القبض على الناعس وباقى عائلتى العقاد والكشر قبل استفحال مجزرة الدم ٠٠ وفى التقرير أشار الى أن الدور الآن قادم على الشابين المتحابين أدهم وسماح وغيرهم من البسطاء الضعفاء ٠٠ وأنه يريد أن يراقب هذين الشابين ٠٠ حتى لا

يذهبا أيضا لقمة سائغة للعبة الدم التى انتشرت بين العائلتين وكأنهما يلعبان بكرة شراب فى حارة مسدودة ٠

وتخطى رئيسه المباشر عند تقديمه التقرير الخاص بتجار الحشيش ، قدم التقرير الى الرئيس الأعلى ٠٠ طالبا النظر فيه أو أن يقبلوا استقالته ٠٠ بعد أن قدم تقريره عرج على بيت النسب الجديد ٠٠ ليبلغهم نبأ انفصاله عن خطيبته التى لم تسأل عنه ولو تليفونيا فى أيام محنته وانهياره بعد مقتل صديقه الرهيف الذى لم يستطع اكتشافه ٠٠ وكان يأمل فى الأيام القادمة أن يكتشف ذلك الشاب النحيف الرقيق العاطل الصموت فى مواجهة المجتمع الغاشم الظالم ٠٠ كان يشعر بأحاسيس ذلك الشاب النحيف الضائع الذى بدا له ٠٠ أنه وجد نفسه من جديد بصداقته للضابط الذى هو ٠٠ متخفيا داخل جلباب أو ملابس بسيطة ٠

ترك أحمد منزل النسب الفاخر ٠٠ متحركا فى خطوات قوية واضحة كعادته عند السير ٠٠ يتحرك بجوار النيل العظيم والهدوء الذى يحيطه وقت الغروب ٠٠ والمراكب القليلة التى تتحرك فى تؤدة فوق خطوطه العسلية الدافئة ٠٠ ولم يجذب انتباهه وقفة عاشقين بالقرب من السياج أو بجوار شجرة سنط ، لم تجد بعد أحدا يحطمها ٠

سار هادئا حزينا متأملا الكون ٠٠ لقد أدى واجبـه تماما ٠٠ وفى الغد يعود الى الحياة المدنية ٠٠ ضاربا من جديد فى طرق الحياة ٠٠ مبتدئا السلم من أوله ٠٠ كان يحب عمله الى حد العبادة ولكن الحب خذله ٠٠ تماما مثل حب المحب الذى لا يجد من حبيبته الا كل صد وجفاء ٠٠

التقرير الذى قدمه لم يجد أى صدى عند المسئولين ٠٠ فقط أشار المختصون بتمرده وعصيانه للأوامر ، وأن دماغه مخلوقة من حجر صـلد ٠٠ مثير للمتـاعب والمشاق ٠٠ وانه يتدخل فى الكثير مما لا يعنيه مما يسبب حرجا للرؤساء والمسئولين

سار طويلا بجوار السور الحجرى القريب من النيل الغامق ٠٠ يجد عنده متعته ومسرته الوحيدة ٠٠ أليس هذا النيل مستمرا طوال هذه السنين الماضية وأيضا خلال السنوات القادمة ٠٠ ونحن سنذهب ولن نعود ٠٠ ويأتى آخرون ويستمر الصراع والصخب قلة الحيلة ٠٠ ولكن النيل مستمر ودائم وخالد وباق ٠

من النيل الخـالد استمد لحظة بعثـه الجـديد ٠٠ والقوة التى لا تذهب عنه الا سويعات قليلة ٠٠ مثل ما حدث له بعد مقتل صديقه الشاحب ٠٠ يعود بعد هـذه اللحظة أقوى وأطهر وأعظم مما كان ٠٠ كان فى هذه

اللحظة بالذات فى حالة يأس قاتلة ٠٠ ولـكن اليأس لابد منه وقودا للأيام الرائعة القادمة ٠٠ سيبدأ الطريق من أوله ٠٠ قويا نشـطا عفيـا ٠٠ يتذكـر وردة بنت كسرى لحظات ٠٠ وصديقه العزيز الفقير محمود الذى تنبأ بلحظة النهاية قبل وقوعها واللقاء الأخير بينهما ٠

مازال يذكر جسده النحيف الساخن وحوله الدماء ٠٠ هنـاك بجـوار جامع آق سـنقر أو الأزرق ٠٠ فى الليل الشاحب والنجوم المتناثرة على سطح السماء ٠٠ تشير الى الوداع الأخير بينهما ٠٠ من كان يعرف أو يستطيع الحساب جيدا ٠

الخـاتمة

بعـد شهور من ترك الضـابط « أحمـد مسعود » الخدمة ·· وابتعـاده عن كل مـا يذكره بمأساته مع مقاطعة المخدر ··

أفرج عن تجار المخدر الذى كان من بينهم « فتحى العقاد » ·· وارتاح العقاد الكبير من مسئوليته وقبع فى داره يخدمه ولد صغير عز ، حتى يأذن الله برحيله نهائيا عن العالم الفاسد الذى كان ركنا فيه ·

وعـادت تجـارة الحشيش كأروج ما تكـون فى الأحواش والدروب القريبة من المنطقة · يؤازرها من يهمهم الأمر ·

وقيـل ـ والله أعلم ـ ان اجتمـاعا مدبرا تم بين ملوك المخدر فى خص يملكه أحدهم ·· لتصفية النزاع

بينهم وانهاء عصر الدم ولو لبعض الوقت ٠٠ والعمل على رفع الأسعار ، وزيادة الخدمات لمن يهمهم الأمر ٠

وبعد فترة وجيزة ٠٠ أعلن فى الجرائد عن زواج الشاب « أدهم » ابن الوجيه الأمثل فتحى العقـاد ٠٠ بـ « سماح » الفتاة الجامعية ابنة برعى الكشر صاحب صالات العربات ٠٠

وانتهى فصل من فصول الحى العـريق الـذى بد وجوده من عصر الملك الظاهر بيبرس حتى يومنا هذا



مؤلفات الأستاذ اسماعيل ولى الدين

حمام الملاطيلى	الطبعة الأولى ١٩٧١	الطبعة الرابعة ١٩٧٨
الأقمـــر	الطبعة الأولى ١٩٧٢	الطبعة الرابعة ١٩٧٩
حمص أخضـــر	الطبعة الأولى ١٩٧٣	الطبعة الثالثة ١٩٨٠
تجـربة حب	الطبعة الأولى ١٩٧٤	الطبعة الثالثة ١٩٨٠
حب تحت الحراسة	الطبعة الأولى ١٩٧٤	الطبعة الثالثة ١٩٨٠
طائر اسمه الحب	الطبعة الأولى ١٩٧٦	الطبعة الثانية ١٩٨٠
الســـلخانة	الطبعة الأولى ١٩٧٦	الطبعة الثانية ١٩٧٨
دار التفـــاح	الطبعة الأولى ١٩٧٧	الطبعة الثانية ١٩٨٠
الموت خلف الفندق	الطبعة الأولى ١٩٧٧	الطبعة الثانية ١٩٨٠
الحب تحت الأشجار	الطبعة الأولى ١٩٧٨	
رحلة الشقاء والحب	الطبعة الأولى ١٩٧٨	
البـــاطنية	الطبعة الأولى ١٩٧٩	الطبعة الثانية ١٩٨٠
العاشـــقان	الطبعة الأولى ١٩٨٠	
أحـــزان سـقارة	الطبعة الأولى ١٩٨٠	
زقاق العســـكر	الطبعة الأولى ١٩٨٠	
منزل العائلة المسمومة	الطبعة الأولى ١٩٨٠	

تحت الطبع

الوردة الحمراء « كلوت بك »

الكـلاب ٠٠ والبحـــر

رقم الايداع بدار الكتب ٤٦٥٣ / ٨٠
الترقيم الدولى ٨ ـ ٧٧ ـ ٧٣١٧ ـ ٩٧٧

دار غـريب للطبـاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩

الناشر
مكتبة غريب
٣٠١ شارع كامل صدقي (الفجالة)

الثمن ٥٠ قرشاً

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (القاهرة)